المحور السادس: سلفستر دي ساسي واللغة العربية "التحفة السنية في علم العربية"

مقدمة:

سلفستر دي ساسي يُعتبر أحد أبرز أعلام الاستشراق الأوروبي في دراسة اللغة العربية، وقد لعب دورًا محوريًا في نقل العربية من بيئتها الأصلية إلى الفضاء الأكاديمي الأوروبي، من خلال مؤلفاته، خصوصًا ما يُعرف بـ Grammaire arabe à l'usage des élèves de l'École spéciale des langues orientales vivantes(التي تُرجمت إلى العربية بـ «التحفة السنية في علم العربية») ومحاضراته ومنهجه التعليمي، حاول «تقنين» العربية وتقديمها على أنها مادة لغوية تُدرَّس بطريقة منهجية ومُنظمة.

في هذا الدرس، سنلقي نظرة نقدية على حياة دي ساسي، على مؤلفه «التحفة السنية»، وعلى انعكاس ذلك على تلقّي اللغة العربية في أوروبا، ثم نسلّط الضوء على الإشكالات النظرية والمعرفية التي تطرحها هذه المناهج الاستشراقية من منظار نقدي.

أولاً: التعريف بسيلفستر دي ساسي ومكانته في دراسة اللغة العربية

يُعدّ **أنطوان إسحاق سيلفستر دي ساسي (Antoine-Isaac Silvestre de Sacy)** أحد أبرز أعلام الاستشراق في القرن التاسع عشر، وواحدًا من المؤسّسين الحقيقيين للدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، وُلد في باريس سنة **1758م** وتوفي سنة **1838م**، وكرّس حياته لدراسة اللغات الشرقية وخاصة **العربية والفارسية**، كان أوّل من أنشأ كرسيًا لتدريس العربية في **مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس** (École spéciale des langues orientales vivantes)، التي أصبحت نواةً للدراسات الشرقية الحديثة في الغرب.

1. خلفيته العلمية:

نشأ دي ساسي في أسرة مثقّفة، فدرس اللغات الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية)، ثم انتقل إلى تعلم العربية والسريانية والعبرية والفارسية، حتى صار من كبار المتخصّصين فيها، تولّى مناصب أكاديمية رفيعة، منها:

- عضو **الأكاديمية الفرنسية**.
- أستاذ اللغة العربية في **كلية فرنسا** .(Collège de France)
- رئيس **المجمع الآسيوي بباريس**.

2. إسهاماته في خدمة اللغة العربية:

سعى دي ساسي إلى وضع مناهج علمية لتعليم العربية للأوروبيين، فكتب عدداً من المؤلفات التي أصبحت مرجعاً أساسياً للدارسين، أهمّها:

- **التحفة السنية في علم العربية :(Grammaire arabe)** وهو أوّل كتاب شامل في النحو العربي موجه لطلبة أوروبا، صدر سنة **1810م**.
- **مختارات من الأدب العربي :(Chrestomathie arabe)** في مجلدين، جمع فيه نصوصاً عربية شعرية ونثرية مع ترجمتها وشرحها.
- **دروس في الديانة المحمدية (Exposé de la religion des Druzes et de l'islamisme):** درس فيه العقائد الإسلامية والدروزية من خلال المخطوطات.

3. موقفه من التراث العربي:

نظر دي ساسي إلى اللغة العربية نظرة احترام وإعجاب، واعتبرها من اللغات التي تمتاز بـ«دقّة القواعد وثراء المفردات»، لكنه تعامل معها بعقلية مقارنة تهدف إلى **تقريبها من المنطق الأوروبي في اللسانيات**، فقد رأى أن النحو العربي يجب أن يُقدَّم ضمن نسق منطقي عام يسهل على الأوروبيين فهمه، وهو ما جعله يبسّط كثيراً من المصطلحات النحوية ويقارنها بالمفاهيم اللاتينية.

4. أهميّته في مسار الدراسات العربية:

يمكن القول إنّ دي ساسي كان **جسرًا بين التراث العربي القديم والدراسات اللغوية الحديثة**، فقد فتح الباب أمام الباحثين الغربيين للتعرّف على علوم النحو والصرف والبلاغة والتاريخ الإسلامي، ومن أبرز تلاميذه:

- المستشرق الألماني **فريتاغ.(Freytag)**
- المستشرق الإنكليزي **إدوارد وليم لين (Edward W. Lane)** صاحب معجم *Lane's Arabic–English Lexicon*.
- المستشرق الفرنسي **إرنست رينان.(Ernest Renan)**

وبذلك يُعدّ دي ساسي المؤسس الفعلي لما يُعرف اليوم بـ **المدرسة الفرنسية في الاستشراق اللغوي**، والتي كانت تعتمد الدقّة في النقل والتحقيق، وإن كانت أحياناً تُسقط بعض المفاهيم الغربية على النصوص العربية.

ثانياً: محتوى كتاب التحفة السنية في علم العربية ومنهجه في دراسة النحو العربي

يُعدّ كتاب **التحفة السنية في علم العربية** (Grammaire arabe à l'usage des élèves de l'École spéciale des langues orientales vivantes) أهمّ ما ألّفه المستشرق **سيلفستر دي ساسي** في ميدان اللغة العربية، وقد مثّل خطوة تأسيسية لدراسة النحو العربي في أوروبا على أسس علمية ومنهجية، صدر الكتاب في جزأين عام **1810م**، وكان موجّهًا لتعليم الطلبة الأوروبيين قواعد العربية على نحو مبسّط ومقارن باللغات الغربية.

1. أهداف الكتاب:

سعى دي ساسي من خلال هذا العمل إلى تحقيق ثلاثة أهداف أساسية:

1. **تيسير تعلّم العربية لغير الناطقين بها**، عبر تبسيط المفاهيم النحوية وإعادة ترتيبها بأسلوب منطقي.
2. **عرض النظام النحوي العربي بصورة علمية مقارنة**، تُبرز انتظام اللغة العربية ودقّتها.
3. **نقل التراث العربي اللغوي إلى أوروبا**، مع المحافظة على جوهره دون إخلال كبير.

وقد سمّى بعض الباحثين هذا العمل بـ«التحفة السنية» لما فيه من **جمعٍ بين الأصالة العربية والدقّة الأوروبية.**

2. البنية العامة للكتاب:

قسّم دي ساسي كتابه إلى **أربعة أبواب رئيسية** تغطي مختلف مستويات اللغة:

الباب الأول: الأصوات وبنية الكلمة

يتحدث المؤلف هنا عن **أصوات اللغة العربية (الحروف)**، ويشرح خصائصها من حيث المخارج والصفات، ثم يقارنها بأصوات اللغات الأوروبية.

- مثال: يوضح الفرق بين حرف **العين** الذي لا يوجد في اللغات الأوروبية، فيقول إنه «صوت حلقيّ يخرج من أقصى الحلق، ويصعب نطقه على اللسان الغربي.
- ثم ينتقل إلى **بنية الكلمة العربية**، مبيّناً أنّ الكلمة العربية غالباً ما تتكوّن من **جذر ثلاثي** تُشتقّ منه معانٍ كثيرة، وهو ما اعتبره «نظاماً اشتقاقياً فريداً» في اللغات الإنسانية.

الباب الثاني: أقسام الكلام

يقسم دي ساسي الكلمة العربية إلى ثلاثة أقسام رئيسية على طريقة النحاة العرب:

1. **الاسم**
2. **الفعل**
3. **الحرف**

ويشرح وظائف كل نوع مع أمثلة مترجمة إلى الفرنسية.

- مثال:
  - الاسم: طالبٌ *un étudiant* .
  - الفعل: كتبَ *il a écrit*.
  - الحرف: في *dans*.
  - ويشير إلى أن **هذا التقسيم العربي يطابق تقريبًا ما نجده في اللاتينية**، مما يدلّ على منطقية القواعد العربية في نظره.

الباب الثالث: الإعراب والعلاقات النحوية

يتناول هذا الباب ظاهرة **الإعراب** باعتبارها المظهر الأبرز للنظام النحوي العربي.

- يشرح أن الحركات الإعرابية (الضمة، الفتحة، الكسرة) تُؤدّي وظيفة نحوية تعادل حروف الجر أو ترتيب الكلمات في اللغات الأوروبية.
- مثال تطبيقي:
  - جاءَ الطالبُ (الطالبُ مرفوع لأنه فاعل).
  - رأيتُ الطالبَ (الطالبَ منصوب لأنه مفعول به).
  - مررتُ بالطالبِ (الطالبِ مجرور بحرف الجر).

ويقارن بين العربية والفرنسية فيقول: إن ما تعبّر عنه العربية بالحركات، تعبّر عنه الفرنسية بمواقع الكلمات.

الباب الرابع: تصريف الأفعال

يقدّم دي ساسي تحليلاً دقيقًا للأفعال العربية من حيث الزمن والبنية، ويقسّمها إلى:

1. **فعل ماضٍ** (كتبَ).
2. **فعل مضارع** (يكتبُ).
3. **فعل أمر** (اكتبْ).

ويعرض جداول لتصريف الأفعال مع الضمائر:

الفاعل	الماضي	المضارع	الأمر
أنا	كتبتُ	أكتبُ	—
أنتَ	كتبتَ	تكتبُ	اكتبْ
هو	كتبَ	يكتبُ	—

كما يشرح الظواهر الصرفية مثل **الإعلال والإدغام والإبدال**، مستشهداً بمصادر النحاة العرب كسيبويه وابن جني، ويضعها في سياقٍ مقارن مع اللغات الهندوأوروبية.

3. منهجه في التأليف والتحليل:

اعتمد دي ساسي في كتابه على **ثلاث ركائز أساسية:**

أ. المنهج المقارن:

كان يقارن باستمرار بين العربية واللغات الأوروبية، ليُبرز خصوصية العربية وارتباطها بالمنطق العام للغات.

ب. المنهج الوصفي التحليلي:

قدّم القواعد كما وجدها عند النحاة العرب، دون أن يفرض عليها تأويلاً لاهوتياً أو فلسفياً، كما كان يفعل بعض المستشرقين قبله، فهو يشرح الظواهر كما هي في النصوص، لا كما يريدها الغرب.

ج. المنهج التعليمي التطبيقي:

صُمِّم الكتاب أساساً لطلبة المدرسة الشرقية في باريس، لذلك تميّز بأسلوب مبسّط وجداول وشرح بالأمثلة:

- **مثال تعليمي:**

- ذهبَ الولدُ إلى المدرسةِ ← تحليل نحوي:
  - ذهبَ: فعل ماضٍ.
  - الولدُ: فاعل مرفوع بالضمة.
  - إلى المدرسةِ: جار ومجرور.
- يقدّم بعدها الترجمة الفرنسية ليقارن الطالب بين تركيب الجملتين.

4. القيمة العلمية للكتاب:

إيجابياته:

1. أول نحو عربي علمي يُدرّس في أوروبا.
2. حافظ على المفاهيم العربية الأصلية مع تقريبها للعقل الغربي.
3. شكّل مرجعاً لتلاميذ دي ساسي الذين أسّسوا لاحقاً مدارس لغوية واستشراقية.

حدوده:

1. أحياناً **أخضع القواعد العربية للمفاهيم اللاتينية**، ففقدت بعض دقّتها.
2. **قلّل من البعد البلاغي والجمالي للغة العربية**، وركّز فقط على الجانب القواعدي.
3. **ابتعد عن السياق الثقافي العربي**، إذ كان هدفه تعليم اللغة لا فهم حضارتها بعمق.

يمكن القول إن دي ساسي في «التحفة السنية» سلك منهجاً **توفيقياً** بين المدرسة العربية التقليدية والمنهج الأوروبي الحديث:

- من العرب أخذ **المنطق الصرفي والإعرابي**.
- ومن الغرب أخذ **التنظيم التعليمي والتصنيف المنهجي**.

وقد جعل من العربية لغة «قابلة للتعلّم الأكاديمي» في الجامعات الأوروبية، ممّا مهّد لاحقاً لتطور الاستشراق اللغوي في فرنسا وألمانيا وإنجلترا.

ثالثاً: أثر التحفة السنية في علم العربية في الدراسات اللغوية الأوروبية والعربية

لم يكن كتاب **سيلفستر دي ساسي** التحفة السنية في علم العربية عملاً لغويًا عادياً، بل كان **حدثًا علميًا بارزًا** أسّس لمرحلة جديدة من الاهتمام باللسان العربي في الغرب، وأحدث تأثيرًا مزدوجًا:

- في **المدرسة الأوروبية الحديثة**، التي استفادت من قواعد العربية لفهم تطور اللغات السامية.
- وفي **المدرسة العربية الحديثة**، التي تأثرت بمنهجه التحليلي والمنطقي في إعادة تنظيم الدرس اللغوي.

1. أثره في الدراسات الأوروبية:

أ. تأسيس المدرسة الفرنسية في الاستشراق اللغوي:

يُعتبر دي ساسي المؤسس الفعلي لما يُعرف بـ **المدرسة الفرنسية في الدراسات الشرقية**، التي كانت تُعنى بالعربية والسريانية والعبرية والفارسية.

- من خلال كتابه، انتقل تعليم العربية من المجال الكنسي أو اللاهوتي إلى **مجال علمي أكاديمي** في الجامعات والمعاهد.
- أصبح كتابه مقرّرًا رسميًا في **مدرسة اللغات الشرقية بباريس** طيلة القرن التاسع عشر.

ب. تأثيره في تلامذته:

من أبرز من تتلمذ على يديه أو تأثر به:

1. **إدوارد وليم لين – (Edward William Lane)** صاحب معجم *Lane's Arabic–English Lexicon*، الذي اعتمد في ترتيبه على الجذر الثلاثي كما عرضه دي ساسي.
2. **فريتاغ – (Freytag)** ألّف كتاب *Lexicon Arabico–Latinum* مستفيدًا من تصنيف دي ساسي النحوي.
3. **إرنست رينان – (Ernest Renan)** في دراسته (1858) *De l'origine du langage* استخدم تحليل دي ساسي للجذور العربية لتفسير المنطق السامي في اللغة.

ج. أثره في المقارنة اللغوية:

استُخدم منهج دي ساسي في المقارنة بين العربية والعبرية والسريانية لتأسيس **اللسانيات السامية** (Philologie sémitique)، فقد قدّم تحليلاً علمياً للجذر الثلاثي والإعراب بوصفهما خاصيتين مميّزتين للغات السامية، وأثّر بذلك في دراسات **فيلهلم غيزينيوس (Wilhelm Gesenius)** في ألمانيا.

2. أثره في الدراسات العربية الحديثة:

أ. إحياء الوعي البنيوي في النحو العربي:

أعاد دي ساسي إلى الواجهة فكرة أن **النحو العربي علم منطقي** يقوم على البنية والتقعيد، وليس مجرد حفظ للمسائل، وقد انتقلت هذه الفكرة إلى بعض رواد النهضة العربية مثل:

- **رفاعة الطهطاوي**، الذي درس في باريس وتأثر بسلفيستر دي ساسي في تنظيم المناهج.
- **بطرس البستاني** و**جرجي زيدان**، اللذان اعتمدا في كتبهما التعليمية أسلوب العرض المقارن والمنهجي المشابه لما فعله دي ساسي.

ب. التأثير في التأليف النحوي العربي الحديث:

بفضل أعمال دي ساسي، ظهرت كتب عربية في القرن التاسع عشر تُحاول إعادة تنظيم النحو بأسلوب مبسط، وكلها تحاول الجمع بين **روح النحو العربي القديم** و**الطريقة المنهجية الغربية** في العرض، كما فعل دي ساسي في التحفة السنية.

ج. الجدل حول الإنصاف والإجحاف:

رغم إسهام دي ساسي في خدمة العربية، فإن بعض الباحثين العرب انتقدوه على:

1. **إغفال البعد الجمالي والثقافي** في اللغة العربية، إذ تعامل معها كمنظومة قواعد فقط.
2. **اعتماده على مصادر نحوية محدودة** (مثل الكافية وشرحها)، دون الرجوع العميق إلى المدرسة البصرية أو الكوفية كاملة.
3. **إسقاطه تصنيفات أوروبية** على اللغة العربية (كالتقسيم الزمني للفعل إلى حاضر وماضٍ ومستقبل)، وهو تقسيم غربي الأصل.

ومع ذلك، يرى كثير من الباحثين أنه **أنصف العربية علميًا**، إذ قدّمها للعالم الغربي باعتبارها لغة علم ونظام، لا لغة غموض أو أسطورة كما كان يُظن من قبل.

4. خلاصة تحليل الأثر:

الجانب	الأثر الإيجابي	التحفظات أو السلبيات
لغوي	إرساء دراسة علمية للغة العربية في الغرب	إخضاعها للمنطق الأوروبي

ثقافي	التعريف بالتراث العربي في الأوساط الأكاديمية الأوروبية	إغفال البعد الجمالي والبياني
تربوي	تنظيم مناهج تعليم العربية بطريقة حديثة	تقليص ثراء النحو إلى قواعد جامدة

الخاتمة:

لقد مثّل كتاب **التحفة السنية في علم العربية** منعطفاً حاسماً في تاريخ الاستشراق اللغوي، فهو أول محاولة علمية أوروبية جادّة لإنصاف العربية وإبراز بنائها المنطقي، ورغم ما شاب عمله من تأويلات غربية، إلا أن أثره كان بالغاً في بناء **جسور معرفية بين الشرق والغرب**، وأسّس لمرحلة جديدة من الوعي اللغوي لدى العرب أنفسهم خلال عصر النهضة.